الاشوريون او النساطرة (*)

بقلم الاب فردينان توتل اليسوعي

اهدي الينا كتاب عنوانه « الاشوريون وجيرانهم » تأليف الدكتور ويكرام ، نلفت اليه نظر القراء ، ونبدي فيه ملاحظة ، ونلخص منه ما تروق معرفته عن الكنيسة الاشورية.

رأى صاحب الكتاب ان الاشوريين او النساطرة المقيمين في بلاد ما بين النهرين انما هم سُلالة الدولة الاشورية الكبرى التي ازدهرت نحو القرن العاشر قبل المسيح ، ثم تقلص ظلها وسقطت ، ولم تندثر بقاياها كلها ، او على الاقل « ليس من دليل واضح على اندثارها التام » . وما بقاياها الا النساطرة المقيمون في ديار الموصل ، والكاثوليك منهم يدعون الكلدان ، ويسمي المؤلف كنيستهم « الاشورية » ، ويتخذ برهاناً على كونهم حقيقة احفاد الاشوريين القدماء : انهم قطنوا على مدى الاجيال البلاد التي كانت في قديم الزمان مملكة اشور ، وان لهم تقاليد ينتسبون بها الى الاشوريين ، وان لغتهم « الارامية » هي في اصلها واحدة مع اللغة الاشورية ، وان ملامح وجوههم وتقاطيعها اشبه بالملامح والتقاطيع المصورة على الآثار الاشورية الثابتة الى يومنا.

والدكتور ويكرام انكليزي الجنس ، بروتستنتي المذهب . وهو متضلع من تاريخ الشرق القديم ، ومطلع على احوال الطوائف « جيران الاشوريين » . وكتابه بجمله اشبه بتاريخ الشرق العام لانه ، وان يكن وضع خصوصاً في الاشوريين ، فقد يكلمنا على الدول والشعوب التي توالت على تعاقب العصور في ظهورها على مسرح بلاد اشور واطرافها مثل بابل وفارس واليونان والرومان والبارتين والعرب والتتر والترك ، وعن الملل التي نشأت في تلك البلاد من عناصر الشعوب الصغيرة التي اخضعتها الدول الكبرى لسلطانها وعن علاقات الملة الاشورية بالغرب وبرومة.

(*) The Assyrians and Their Neighbours, *by The Rev.* W. A. WIGRAM, *G. Bell and Sons, London*, 1929.

ولهجة المؤلف في البابا وتعاطيه مع الكنائس الشرقية صادرة عن نظراته الشخصية ، وهي لا تطابق الحقيقة دائماً. فانه ينوّه بان الاب الاقدس اشدّ حرصاً على بسط نفوذه على الشرق منه على حفظ الايمان ، وانه يتساهل مع الشرقيين في امر العقيدة ، ويغضّ النظر عن شواذاتهم في ممارسة النظامات الدينية والقوانين الكنائسية على شرط ان يعترفوا بسلطته الرسولية . وهذا القول والحقيقة على طرفي نقيض. لانه ، وان تكن الظروف الجأت الاب الاقدس ، في حين من الاحايين ، الى السكوت او الى غضّ النظر دفعاً لشرّ اعظم ، فلم يرضَ قط بمصالحة من لم يتفق والكرسي الروماني بالايمان والتعليم.

ولا ادري هل يقتنع الاثريون ببراهين المؤلف على « اشورية » النساطرة ؟ فانهم ان انتسبوا للاشوريين ، فغيرهم ايضاً ينتسب الى ذلك الشعب القديم كالقبيلة الكردية التي ذكرها الجغرافي وكلو (Reclus) ؛ وان سكنوا بلاد اشور القديمة فالاكراد ايضاً سكنوها . اما ملامح التشابه بين صورة احد النساطرة في يومنا وصورة احد الاشوريين القدماء فليست دليلاً قاطعاً على « اشوريته » وكون لغة النساطرة ارامية الاصل فقد يدل ايضاً على اصلهم الارامي. اما اصلهم الاشوري فاني لنا ان نثبته بالتأكيد ، وبين يوحنا ، مؤسس مدرسة نصيبين ، وانقراض الدولة الاشورية مسافة عشرة قرون على التقريب . او لا يذكرنا ذلك النسب بمن ينتسب الى الاسكندر ذي القرنين من سكان بلادنا الروم الملكيين ؟ او بمن ينتسب الى المردة من غيرهم ؟

ولكن ما بالنا نناقش المؤلف رأياً يدل على النساطرة ثوب العز والفخر ، وما احرانا بالاصغاء لحديثه عن هذه الفئة المسيحية التي تقربت منا كثيراً بعد الحرب ، وفي هذه الايام. وكتاب الدكتور ويكرام سلس العبارة أنيس المجالسة. يروقنا ان نقتطف للقراء زبدة تعليماته عن الكنيسة النسطورية او « الاشورية ».

* * *

نال النساطرة ما نالهم من الاضطهاد في القرون السابقة للاسلام ، على الخصوص ايام توتر العلاقات ونشوب الحروب بين بيزنطية والفرس ، لان موقع بلاد اشور غربي المملكة الساسانية ، هو على الحدود بين الدولتين فما ان

تصطدم بمملكة الا وتصطك اطرافها ويحل فيها الدمار . فلما تنصر قسطنطين وأعلن الدين المسيحي ديناً للمملكة الرومانية ، اصبح كل مسيحي في المملكة الساسانية موضعاً للشبهة وموقعاً للنقمة . وكانت تلك النقمة تنهال ويلات على النساطرة اذا افرط ملك بيزنطية بتفاخرته بحماية المسيحيين في الشرق ؛ واذا غضب عليهم الفرس عباد النار وخافوا على ديانتهم من دعاية المسيحيين . وكانت تتوالى الاضطهادات الى ان يحكم في الفرس ملك حليم يرضى للمسيحيين بعض الحرية فتكون «الطائفة» والملة الاشورية في ظل تلك السياسة المتساهلة. ولم يعرف الشعب الساكن بلاد اشور الجدال الذي القى الاضطراب في الكنيسة عند ظهور اريوس وبدعته ، لكن الكنيسة النسطورية انشقت عن الايمان الكاثوليكي عند ظهور بدعة نسطور . ولعل دواعي الشقاق الاصلية لم تكن عن فساد في العقيدة ، ولكن عن سوء تفاهم في الالفاظ التي كانوا يعبرون بها عن ايمانهم ، ولم يكن معناها محدداً محصوراً كما حددته الكنيسة من بعد ، دفعاً للالتباس . على ان القلوب كانت نافرة من بيزنطية ، وذلك ما حدا بالمسيحيين الشرقيين في الغالب الى رفع لواء البدع تمرداً ، لا على التعليم الكنائسي ، ولكن على السلطة العلمانية المتدخلة بشؤون الايمان وبما هو ليس من صلاحيتها ، فذهب بعضهم مذهب المونوفيزية ، وغيرهم مذهب نسطور ، لئلا يلتقوا وبيزنطية في توحيد كلمتهم . وما عتم ان انقلب الخلاف في الكلام انقساماً في العقيدة وخلافاً حقيقياً نشأت منه الطوائف .

ولما فتح الاسلام الشرق المسيحي ، كان ذلك الانقسام بين المسيحيين اعظم مساعد للفاتحين على تلك الاعناق ؛ فساعدوا عليه وجعلوا لكل بدعة او طائفة كيانها الادبي واستقلالها الاداري ، ومنحوها بامتيازات خالها الجهال خيراً ، انما هي التي كانت الضربة القاضية على وحدة المسيحيين واتفاقهم ، وهي التي لا تزال نتائجها الى يومنا تزرع الفتن بين طائفة وطائفة وبين كنيسة وكنيسة حتى في منطقة واحدة بل في قرية واحدة .

فتح العرب بلاد الشام وفارس فاتخذوا معلميهم ومهذبيهم من النساطرة . وكان هؤلاء يرسلون شبانهم الى مدرسة الرها الشهيرة . ثم جلس على كرسي

الاسقفية برصوما النصيبيني فانشأ في مدينته معهداً للعلوم ، وهذب فيه شبان ملته على مذهب افلاطون وارسطو ولم تلبث ان ازدهرت مدرسة نصيبين . فلما نظر الخلفاء الى الامم التي اطاعتهم وجدوا السريان النساطرة اقرب اليهم لغة من غيرهم فعهدوا اليهم بالتعليم والترجمة . فالتقى العرب واليونان على ارض اشور وكان الفضل بتآلفهم للنساطرة .

وبلغت الكنيسة النسطورية اوج عزها في تلك الايام ، فعدت ٢٥ متروبوليتاً ووالين للبطريرك تيموطاوس . وكان لها اسقف في دمشق ، وآخر في اورشليم . وكان الشعب النسطوري مقداماً على العمل ، غيوراً على الدين . فساح في البلاد وبلغ سومطرة والمالابار والصين ، وبشر بالمسيح ورحل اساقفته الى الشمال وعاشروا الاكراد وسكنوا تحت الخيم ، وبشروا في الجبال .

قال المؤلف : « ان المسيحية هي شرقية الاصل ، واذا عرضها الشرقيون على الشرقيين فقد تظهر كانها وضعت خصيصاً لاجلهم . سارت الكنيسة « الاشورية » من غير ان تتجهز بما تتجهز به الجمعيات التبشيرية في عصرنا من امتعة واموال ، ومدت فروعها بنموها الطبيعي في تلك الاقاليم ذاتها التي طالما طمعت الارساليات المسيحية بفتحها في يومنا . منذ اوائل القرن السادس ظهر في مرو وفي هراة وفي سمرقند ، اساقفة ورؤساء اساقفة ! لو اتيح لنا اليوم ان نرى طائفة مسيحية في تلك البلاد من اهاليها ذاتهم ، فاي عزيز او ثمين لا نبذل للحصول عليها ؟ اما المؤسسات المسيحية النسطورية فقد تأصلت في البلاد وصارت وطنية تماماً حتى سموها « المعابد الفرسية »

وحدثت الحروب الصليبية وزحف المغول من اواسط آسية على بلاد ما بين النهرين ، ولم يكونوا مسلمين بل كان في معسكر ملكهم رجال من الاكليروس النسطوري واللاتيني . فارسل خان المغول الاكبر يهب الله البطريرك النسطوري المذهب ، الصيني المنشأ ، الى البابا سفيراً خاصاً من قبله . ولم تتضح غاية تلك الوفادة ، وربما صدرت عن السلطان باغراء احد رجاله المسيحيين على امل اجتذاب المغول الى اعتناق المسيحية . ولعل السلطان طمع بالتقرب الى البابا عسى ان ينال بواسطته نجدةً على دولة المسلمين مناوئيه .

اما يهب الله فرض وانتدب احد اقربائه المدعو صوما ليقوم بالسفارة مقامه. فجال صوما بلاد الغرب ، وحلّ رومة عند ارتقاء البابا نيقولاوس الرابع السدة البطرسية . فاكرم الاب الاقدس ضيافته . اما استنهاض همم الصليبيين نجدةً للمغول ، فلم يكن من سبيل اليه بعد ما سببته الحروب الصليبية من الخسائر للافرنج . لكن البابا بعث رهباناً من الفرنسيسكان الى المغول ليلقنوا ارسالية مسيحية في بلاد التتر . وفي غضونها سقطت عكا من ايدي الصليبيين سنة ١٢٩١ . وتوفي السلطان المغولي صديق المسيحيين ، وخلفه في الملك غازان . فاعتنق الاسلام هو وشعبه . وخابت من ثم آمال المسيحية بتنصير المغول . وما كل فرصة تنال !

هذا ! ولو ان المسيحية في الشرق ظهرت عزيزةً ، قويةً ، غير مقسمة ولا مشوّهة بالوان البدع ، لاستهوت قلوب المغول او الاتراك ، وهم في ظلام الوثنية ، يستهدون الى اعتناق ديانة يتخذونها ديانة قومية لهم . ولو تنصر الاتراك ايّ خير لم يكن ليرجى من تنصرهم ، وفيهم ، على صلابة عودهم وقساوتهم ، الصفات الحسنة التي كانت سوف تزدهر فيهم ازدهارها في امثالهم من الشعوب الاوربية البربرية بعد ان دخلت في طاعة الانجيل ، ونالت منه روح الكرم والكفران بالذات والمروءة المسيحية ، ففتحت العالم للعمران وهذبت الذراري المالكة على اعناق الانام .

وكانت لحوال الطائفة النسطورية في بلاد الموصل ، على العهد التتري والعهد التركي ، كاحوال سائر الطوائف المسيحية . اجتاح تيمور البلاد ، وعاث فساداً في ما بين النهرين والموصل ، واعمل السيف في المسيحيين ، فاهلك اكثر من ثلاثة ارباع القاطنين ديار الموصل . اما الباقون فتبدّد شملهم في جبال هيكار وما عتموا ان لموا شتاتهم ، وانضموا الى بواقي المسيحيين الذين اقاموا في الجبال وفي منطقة بحيرة اورمية ، فانبعثت حياتهم الطائفية من موتها . ولكن الاضطهادات التي دامت زهاء ٢٥٠ سنة أثرت في حياة الشعب الدينية فاضطربت احواله ، وتزعزعت اركانه ، وذلك ان وظيفة البطريرك اصبحت محصورة بين اعضاء اسرة واحدة ، اذ انه كان حالما يتقلّد وظيفته ، يسمي خلفه من بعده ، وان كان ولداً قاصراً . فكان اختراق حرمة القوانين في انتخاب رئيس

الاكليروس مدعاة للانقسام في الملة .

في السنة ١٥٥٢ ، توفي البطريرك شمعون بار ماما ، فقام ابن اخيه شمعون دنكا يطالب بالبطريركية لنفسه . فخالفه الكثيرون وانضموا الى رئيس دير ربان هرمز بالقرب من الموصل ، واحتجوا على اختراق حرمة قوانين البيعة في تعيين احبارها ، ولجأوا الى البابا . وكانت تلك الحوادث اصلاً للحركة التي نشأت منها الطائفة الكلدانية الكاثوليكية .

وفي الحرب المسكونية حاولت تركية ان تقنع رعاياها المسيحيين انها تريد موالاتهم وخيرهم . وما عتمت ان قامت عليهم تمزقهم وتبيدهم ، فطرحتهم في لجة اليأس . واشعر النساطرة المقيمون في بلاد الموصل ، ومجواز بحيرة اورمية بدنوّ اجلهم ، وقد سلح الاتراك الاكراد عليهم ، فلاذوا بحمى روسية ودخلوا في مصاف المتحالفين وتسلحوا وتمنعوا بجبالهم . ثم سقط القيصر ، وتضعضعت اركان روسية ، وانقطعت مساعدة الروس للنساطرة ، ونفدت الذخيرة بين ايديهم ، وقتل بطريركهم مار شمعون اغتيالاً على يد الأكراد ، واحاطت بهم الاهوال ، فعقدوا العزائم على الرحيل الى بغداد ليدخلوا في حمى السلطة البريطانية . شدوا رحالهم وساروا وقطعوا مسافة خمس مئة ميل من جبال واودية ، في بلاد انقلب سكانها عليهم كالمقارب . فمات منهم من مات ، ونجا من نجا ، الى ان بلغوا دار السلام فاسكنتهم السلطة البريطانية بعقوبة شمالي بغداد على نهر ديالى .

واظهر العسكر النسطوري او الاشوري بأساً وشجاعة أعجب بهما ضباط الانكليز . فكونوا منهم فرقة جهزوها بالمدات واعتمدوا عليها في شؤون العراق الحربية . ومضت ايام الحرب المسكونية ، وها ان الاشوريين يتوقون الى العودة الى جبالهم والى تكوين وطن قومي . وقد يخاف عليهم صاحب الكتاب ، الذي اخذنا عنه هذا المقال ، ان تتحد كنيستهم بالكنيسة الكلدانية الكاثوليكية فتضيع هويتها وتنقرض بذلك « سلالة ابراهيم » . ولكن لا خطر عليهم من الانقراض باتحادهم بالكثلكة ! لان ابناء الكنيسة الرومانية ، على اتحادهم بالايمان والخضوع لخليفة المسيح ، لا ينفكون محافظين على قوميتهم فهذا يكون انكليزياً وذاك ارمنياً وهذا « اشورياً » الخ . . . ويكونون جميعهم مسيحيين كاثوليكيين .